الكونفوشوسية

الصين قبل كونفوشيوس

عندما نجري مقارنة بين الهند والصين، لا يمكن إلا أن يثير دهشتنا ذلك التباين الصارخ في رؤيتيهما للعالم. فالشعب الهندي، دائم التطلع إلى السماء، إلى الآلهة، إلى الروح الكوني. ولذلك كان دائماً يرفع قادته إلى السماء، كما أسكن في هذه الأخيرة أعداداً مهولة من الآلهة (يحكى أن عددهم هناك لا يقل عن 320 مليون إله). ونحن بدورنا نعرف أن البوذية مرتبطة بالسماء. فانبعاث المرء في هذا الإهاب البشري أو ذاك، وتحقيق إمكانية وضع حد لسلسلة الآلام الأبدية، هي المعضلة التي عملت على حلها الديانات والمدارس الفلسفية الهندية. حاولت جميعها أن تعلّم الإنسان كيف يتبع سلوكاً يفضي في آخر المطاف إلى قطع هذه السلسلة وبلوغ السكينة المرجوة: النيرفانا. ولم تذهب أحلامهم إلى أبعد من ذلك، فلم يفكر هؤلاء الناس بالجنة السماوية، ولا بالعالم الآخر وروعة العيش فيه؛ إنما فكروا وتوسلوا الآلهة، والإله منّة واحدة فقط، هي أن يقطع خيط الآلام، ويمنح الفرصة السانحة لولوج العدم: النيرفانا.

أما الشعب الصيني فقد نظر إلى مسائل حياته من زاوية مغايرة تماماً. لقد رأى الصينيون أن الحياة لم تُمنح للإنسان عبثاً. فهي حياة واحدة منحت لكي تعاش على أحسن وجه، وأفضل كفاية. وقد سخروا كل مواهبهم وكفاءاتهم لتنظيم هذه الحياة الزمنية تنظيماً أكثر سداداً، وأكثر إنصافاً، وأكثر عقلانية. وعلى وجه الخصوص، أكثر عقلانية. فقد رأى العلماء أن العقلانية هي التي تقوم في صلب النّظم الفلسفية والدينية الصينية، وليس الصوفية، والباطنية وما إلى ذلك.

لقد أقر الصينيون أن بداية البدايات، ومصدر كل ما هو موجود على الأرض، يقع هناك في السماء. ولم يختلقوا أي شيء بخصوص ما يجري فيها، وكم من الآلهة هناك، وكيف تجري علاقاتهم، و... ولم ينشئ الصينيون أي أساطير عن طريقة عيش الآلهة والصراع بينهم؛ ولم يهبطوا بهم إلى ما دون منزلة الراهب البوذي. إنهم بكل بساطة أدركوا أن السماء تحمل بداية البدايات كلها، وفيها مفتاح حياتهم الزمنية. ومع عدم معرفتهم ببنية بداية البدايات، إلا أن الصينيين أدوا لها آيات الاحترام، وسجدوا لها، واهتدوا بهديها. ويمكن القول: إن

السماء كانت بالنسبة للصينيين هي الإله، هي المشترك الكلي الأسمى، المجرد، البارد، الصارم، اللامبالي بالإنسان. فالسماء بالنسبة للصينيين ليست الإله الرحيم الرؤوف: المحبة عند المسيحيين. ولكنها في الوقت نفسه ليست شريرة، وليست طيبة. إنها الناموس، القانون الذي يجب احترامه بدقة والتزام، لأن الحياة على الأرض ترتبط به. ولم يكن متعارفاً عليه لدى الصينيين أن يتحدثوا عن محبة السماء. لقد اعترفوا بها بداية البدايات وحسب، فخضعوا لسلطانها، وخشوا انتهاك قانونها.

ولذلك فإنه ليس عند الصينيين عملياً، ميثولوجيا. أما الأبطال الميثولوجيون الذين رفعهم الصينيون قديماً إلى السماء، فإنهم ما لبثوا أن أعادوهم إلى الأرض رويداً رويداً، وفقدوا طابعهم الميثولوجي. وفي الوقت نفسه جلّ الصينيون أولئك الذين تصرفوا بحكمة وعدل، ووفق قوانين السماء. فمنذ القدم (قبل أن يظهر بوذا في الهند)، لم يتأسس المجتمع الصيني على القرابين، والتصورات الصوفية عن الآلهة والمعبودات، ولا على الدين بالمغزى الذي يفهمه فيه الأوروبيون، بل على الأخلاق، على معايير السلوك التي يجب أن يلتزم الصيني بها في شتى الحالات. ونحن نرى أنه من الأحسن أن تدعى تلك المعايير طقوساً. فكل ما في المجتمع بني وفق مبدأ العقلانية، والملاءمة، والفائدة. والثقافة التقليدية الصينية عينها، لم يشكلها الدين بصفته ديناً، بل شكلتها هذه الأخلاق الطقسية الصورية. وغني عن البيان، إنه في مثل هكذا حالة، لا يمكن أن يكون لرجال الدين أي دور مميز أو ذي أهمية خاصة. فقد تلخص دور الكهنة هنا، في تأدية الأعمال التي تهم الحياة الزمنية، والاهتمام بالتزام الشعب بالمعايير الأخلاقية. ولذلك فإن الكهنوت بالمعنى الأوروبي، لم يكن له وجود في الصين. فواجبات الكهنة أثناء تأدية الخدمة الدينية على شرف السماء، وأهم الآلهة، والأرواح الأسلاف، كان يؤديها العلماء، فهم الفئة المميزة في المجتمع الصيني.

ولم ترس أسس هذا البناء الاجتماعي في الصين، في زمن يتجاوز الألف الثانية قبل الميلاد، ففي هذا العصر ولدت الحضارة الإينية المدينية الطابع. وفي هذا الوقت تقريباً، استولى الآريون على الهند. وما يثير الفضول، هو أن إرث الآريين وإرث الإينيين كان متماثلاً. فقبل هؤلاء، ازدهر الإيمان بكثرة من الآلهة والمعبودات، وكذلك الأرواح. وقدم الصينيون والهنود إلى هؤلاء قرابين دموية، بما فيها القرابين البشرية. ومن البدهي أنه كان للهنود آلهتهم، وللصينيين آلهتهم. بيد أن الوضع من حيث المبدأ كان متشابهاً. ثمَّ سارت عملية التطور في كل من البلدين بعدئذٍ، في طريق مغايرة تماماً.

فقد أخذ يبرز في الصين من بين كثرة من الآلهة، إله واحد، هو الإله شانغدي. ولكن هذا الإله كان إلهاً فريداً. فهو لم يكن الإله الأعلى فقط، إنما كان

إضافة إلى ذلك، السلف الخرافي الذي خرج منه الشعب الصيني: إنه الجد الأول، الطوطم. وهنا بالضبط يقع مفرق الطريقين الكبيرتين، اللتين سار المجتمع الهندي على إحداهما، والصيني على الأخرى. فعند الصينيين غدا الإله جداً مؤسساً، إذ نزل إلى الأرض الصينية، وجعل منشأ الشعب الصيني مؤلّهاً. وعليه، فإن احترام الوالدين، والجدين، والأسلاف عند الصينيين، مجرد قاعدة من قواعد الأخلاق، بل موقف من الإله نفسه. وهذا هو الذي يفتقر إليه المجتمع المعاصر. وهو من حيث الجوهر، محور الارتكاز الرئيس الذي يستند إليه كل مجتمع. ويبيّن لنا مثال الصين أن آلاف السنين عجزت عن كسر محور الارتكاز هذا. وهذا يعني أن المجتمع الصيني قد نجح في الحفاظ على استقراره. ومن المعروف أن تاريخ الصين عرف انتفاضات، وثورات، وتعاقب سلالات، كما خضعت الصين للاحتلال الأجنبي، إلا أن هذا كله لم يحدث أي تغيير في جوهر بنية المجتمع الصيني، أو في هيكله. بل بفضل هذا الهيكل كان المجتمع الصيني ينهض ويتابع طريقه من جديد. وحتى عواصف الشيوعية لم تكسر هذا الهيكل، وبفضله يمضي الصينيون قدماً وبخطى ثابتة وثقة بالمستقبل. وبفضل هذا الهيكل لن تعرف الصين بيريسترويكات عبثية «لا يقف على رأسها قيصر»، ولن يعرف حركات إفلاس كالتي يعيشها الشعب الروسي الآن. ولكن يجب ألا نعتقد بأن هذا الهيكل يعدّ شيئاً ما يشبه القيد الذي يقيد تقدم المجتمع. إنه كهيكل برج استانكنا[1]: يسمح للبرج بدائرة واسعة من الحركة، لكنه لا يسمح له بالسقوط. وما يجدر الإشارة له، هو أن هذا الهيكل يجيز للشعب حق الانتفاضة، والثورة، إذا ما أحجم زعيم البلاد عن تأدية واجباته بنزاهة، ولذلك كان حاملو هذا النظام ورعاته، إلى جانب الثائرين دوماً. وسرعان ما كانت السلالة تعقب الأخرى، وسرعان ما كان المجتمع يتعافى من أزمته، ويعود من جديد إلى حياته سليماً معافى. وعلى من يحاول بناء روسيا اليوم أن يعرف التاريخ، ويعي أن لكل شعب، لكل إتنوس هيكله الذي بفضله يعيش. وطالما يحتفظ هذا الهيكل بقوته

١- برج التلفاز في موسكو. - المترجم.

وطاقته، فإن الشعب لا يخشى أي تغيرات أو أزمات داخلية. ولكن إذا ما سقط الهيكل، فإن كل شيء انتهى. فيتداعى كل شيء من غير أسباب واضحة، ولا فائدة من الاستعانة بأي تجربة قومية كانت، أو أي نموذج من نماذج البناء الاجتماعي. ولكن كما يحدث انهيار البلاد على حين غرة، فإنها تستطيع على حين غرة أن تنهض من الركام. بيد أن هذا لا يحدث، إلا إذا عادت واكتسبت هيكلها من جديد، واستعادت روحها إذا صح التعبير، وسوف يكون من المفيد جداً أن يتذكر هذا، الذين أخذوا الآن على عاقتهم مسؤولية النهوض بروسيا من بين الركام، بل بمعنى أدق، إنه من المفيد جداً لو عرفوا هذا؛ فالإنسان لا يتذكر إلا ما يعرفه.

وهكذا قويَ منذ القدم مبدأ العقلانية في المجتمع الصيني، مبدأ الواقعية الذي تجلى في المبالغة بعبادة الأسلاف، كما يرى الأوروبيون. وكانت عبادة الأسلاف هذه، هي بالذات التي باتت قاعدة المنظومة الدينية الصينية. ويدعو المؤرخون العصر الذي نتحدث عنه، عصر شان - إين، والحضارة التي كانت قائمة وقتذاك، حضارة الإين. ويتزامن هذا العصر مع بداية حقبة تدوين التوراة تقريباً، أي في الألف الثانية قبل الميلاد، وفيما يتعلق بالحكام - الفان، فقد عدوا من ذلك الوقت الممثلين الزمنيين للإله شاندي، الذي كان كما أشرنا، السلف المؤسس للشعب الصيني. وعلى هذا النحو كان أسلاف الصينيين بمرتبة آلهة، وكان التواصل معهم مستمراً ومهمّاً جداً، بل كان العنصر الأهم لوجود الصينيين.

وكان هذا التواصل مع الأسلاف، وعلى رأسهم شاندي، يتحقق عن طريق التنجيم. وقد ترافق طقس التنجيم بطقس تقديم القرابين. وكان الغرض من التنجيم محدداً وواضحاً: تزويد الأسلاف بالمعلومات عن أحفادهم، عن أهم لحظات حياتهم، وتلقي الإرشادات والنصائح منهم. وكان ذلك كله يجري على الوجه الآتي: يؤدي دور حامل المعلومات، عظم لوح كبش، أو درع سلحفاة. فقد كانت

المعلومات تحمل على الحامل المعني على شكل تجويفات ونصوص مؤلَّفة من عدد من الرموز التصويرية. وكانت المعلومات تصاغ أسئلة إجاباتها «نعم» أو «لا». ولكي تظهر الإجابة، كان العظم أو الدرع يكوى في تجويف صفيحة برونزية محماة. فتظهر المعلومات الجديدة في صورة صدوع على الجهة الأخرى. وليست تقنية التنجيم هي المهمة بالنسبة لنا؛ إنما المهم هو أن المنجّمين لم يكونوا من المشعوذين القرويين الجهلة، بل أشخاصاً متعلمين مثقفين، ذوي مواهب ومؤهلات، ويديرون شؤون البلاد. وكانوا علاوة على هذا كله يتقنون الكتابة التصويرية، التي عدت الأساس الذي قامت عليه الهيروغليفية. وبذلك لم يكن التنجيم شأناً فردياً بقدر ما كان شأناً حكومياً. لقد كان هناك نظام كامل من المؤشرات المدروسة المدوّنة، كما كان في ذلك النظام مقاييس موضوعية للتقدير الحسابي.

في العام 1027م، انتهى عصر شان - إين. ولكن النظام نفسه لم يندثر، إنما طرأ عليه بعض التغيرات نحو الأحسن. فالمسألة هي أن الشعوب المجاورة اتحدت ودمرت دولة إين. واستقرت على امتداد حوض نهر خوانخي، سلالة جديدة هي سلالة تشجوو. وقد أخذت هذه السلالة عن السلالة السابقة، كل شيء تقريباً: عبادة الإله السلف شاندي، وممارسة التنجيم، و... ولكنها أرست في المجتمع جديدها أيضاً، فعبادة السماء كانت متقدمة عند المنتصرين.

وفي طور لاحق، أزاحت عبادة السماء عبادة الإله شاندي، وانتقل هذا الأخير إلى فئة الأسلاف المؤلهين. وبات الحكام يردون نسبهم إلى السماء لا إلى شاندي. وقد بقي حكام الصين أبناء السماء حتى القرن 20م. ونحن أشرنا سابقاً إلى أن عبادة السماء لم تحمل طابعاً صوفياً، بل طابعا معنوياً - أخلاقياً. لقد كانت السماء هي التي تعاقب المسيئين وتكافئ المحسنين. وألقى النظام على عاتق الملك التزامات محددة بدقة صارمة، وهذا ما لم يعرفه أي بلد من بلدان العالم كلها، في أي عصر تاريخي كان. وكان هذا واحداً من الشروط التي بفضلها كان الصينيون دائماً مجتمعاً راسخاً وقوياً. فالصين لم تعرف قط، ولن تعرف في أي يوم من الأيام، الحالات التي كان الحاكم يؤله فيها حتى آخر لحظة من حياته، ثمَّ يخرجونه من القبر بعد دفنه، ويلوّث بالقاذورات وتتفل عليه.

لقد عُدّ الحكام كلهم أبناء السماء، ومع ذلك كان يجب على كل حاكم، لكي يحق له أن يحكم الشعب، أن تكون له «دي»، أي أن يتحلى بالحكمة والفضيلة والعفة. وكانت لهذه «الدي» المكنونة صبغة مقدسة. وإذا ما فقد الحاكم

«الدي»، فإنه لا يفقد السماء، إنما يخسر الشعب. وذلك هو الرادع الأقوى. لقد كانت السماء بالنسبة للصينيين هي العقل، والمنفعة، والعدل، والفضيلة، وهكذا أُبرز المبدأ العقلاني، ووضع في المكان الأول على مستوى أرحب بكثير مما كانت عليه الحال في عهد السلالة السابقة، سلالة الإينيين. لقد دعا الحكام أنفسهم بأبناء السماء، ودعوا البلاد التي كانوا يحكمونها، أرض السماء. فالسماء فوق الأرض كلها واحدة. وهذا يعني أن أرض السماء كلها واحدة كذلك. أما ما تبقى مما لم يندرج في تلك اللحظة في أرض السماء، فهو كله ليس سوى تفاصيل: الأطراف البربرية التي كانت تسعى بهذا الشكل أو ذاك إلى أرض السماء، التي عدّ أبناء السماء أنفسهم مسؤولين عنها. وبما أن المقصود بأرض السماء، هو العالم كله فإن مركزها، أي الصين، دعيت بالدولة المركز.

لقد أخذت عبادة الأسلاف تتطور في عهد السلالة الجديدة، وبدأ تأثيرها ينعكس في بنية المجتمع. فلم تعد الأهمية الآن لواقعة وجود السلف نفسها، بل لحقيقة من كان السلف المعني، إلى أي أسرة ينتمي، وإلى أي حد كان هذا قريباً من السلالة الحاكمة. فقد كان ثمَّة جدول دقيق للمراتب. وتراجعت كثرة إقلاقهم للأسلاف بالشؤون الزمنية، لكن ما كان منتظراً منهم في ذلك العالم، كان كثيراً جداً. لقد اعتقد الصينيون أن للإنسان نفسين، نفس مادية تمضي مع المتوفى إلى داخل الأرض، ونفس سماوية تمضي بعد وفاة الشخص إلى السماء، لتشغل هناك مكانة مرموقة تتوافق توافقاً دقيقاً مع مرتبة هذه النفس، مع مرتبة هذا الشخص. وكان الذين تتوفر لديهم الوسائل (أي الحكام والأرستقراطيين)، يبنون على شرف أسلافهم الراحلين معابد منزلية، لكن كل شيء داخل هذه المعابد، كان يخضع لنظام واحد دقيق، لجدول المراتب. فبقدر ما تكون مرتبة السلف المعني عالية، بقدر ما كان يسمح بوضع ألواح في المعبد تحمل اسمه. ففي معبد الحاكم كان عدد الألواح سبعة، وفي معبد حاكم المقاطعة خمسة، وفي معبد الأرستقراطي ثلاثة. وهناك تقدّم آخر، حصل في عهد سلالة تشجوو، مقارنة مع عهد سلالة إين، وهو أنهم منعوا أن يدفن مع المتوفى أناس أحياء: العبيد، والخدم، وما شابه ممن يمكن أن يحتاج المعني إلى خدماتهم في العالم الآخر.

أما في ميدان الإنتاج، فقد كان الفلاحون هم مطعمو الشعب الصيني كله. وكان المحصول هو الهم الأزلي لهؤلاء. ولذلك توجهت عبادتهم نحو الأرض. وكانت النسوة الشامانات هن اللواتي يحققن الصلة مع الأرض. لقد كانت كاهنات الأرض الأم هؤلاء يقفن عاريات تحت أشعة الشمس الحارقة ساعات طويلة، يتوسلن هطول المطر. ولم تكن الشامانة تهتم إلا باستجابة توسلاتها. وإذا ما أحجمت الأم الأرض عن إرسال المطر في الحقبة الجفاف، كانوا يحرقون الشامانة وهي حية، أو بكلمات أخرى، كانوا يقدمونها قرباناً لإله الجفاف.

لقد كان في كل قرية مذبح بني على شرف روح الأرض (شي). وعلى هذا المذبح كانوا يقدمون القرابين، على أمل جمع محصول أفضل. وفيما بعد بات الأرستقراطيون يبنون مذابح «لشي»، بل حتى الحكام أنفسهم كانوا يبنونها. ثمَّ غدا المذبح رمزاً للسلطة. وعدّ استيلاء الأعداء عليه، نصراً ناجزاً لهم. أما أسرى العدو فقد كانوا يقدمونهم قرابين على هذه المذابح. ولم تكن الأعمال الزراعية تبدأ في الصين، إلا بعد أن يحرث الحاكم بنفسه الثلم الأول في فصل الربيع. وكان هذا الثلم يمتد على مقربة من مذبح «شي» في العاصمة. ومثلهم مثل الشعوب الأخرى، كان الصينيون يقيمون احتفالات خريفية احتفاءً بجني المحاصيل. وفي الفصل نفسه كانت تقام الأعراس، و...

يتضح لنا إذاً أنه قام في الصين بناء إداري زمني روحي شديد التعقيد. وإذا كانت السلطة الروحية لدى المسلمين قد أخذت على عاتقها، في الطور الأول من قيامها، مهمات السلطة الزمنية ووظائفها كلها، فإن الأمر في الصين سار في الاتجاه المعاكس: كانت السلطة الزمنية (الحاكم وموظفو الإدارة)، هي التي تنهض بمهمات السلطة الروحية. وما سهل الأمر أن تأدية وظائف السلطة الروحية في الصين، أي السجود للسماء والأرض، وإقامة طقوس عبادتيهما، لم تتطلب صرف كثير من الوقت أو الجهد، أو وجود خدم متخصصين في الخدمة الروحية. وبهذا الشكل تكون قد نشأت في الصين سلطة زمنية ذات صبغة روحية. فقد كان الحاكم وموظفوه مسؤولين عن حسن سير النظام في أرض السماء، أمام السماء نفسها، وقد رأى هؤلاء أن واجبهم الأساس يتلخص في تحقيق هذه المهمة. ولم يكن ذلك يقتضي بناء كثرة من المعابد المكرّسة لمختلف الآلهة والقديسين. بالتالي لم تكن هناك حاجة لكفاية جيش من مختلف المراتب الكهنوتية. فالصيني لم يلتزم بالمعايير الأخلاقية خوفاً من إله، إنما لأن رخاءه هنا على الأرض كان يرتبط بالتزامه هذا. فقد كان الالتزام غير المشروط بقواعد الأخلاق السامية، هو الضمان الوحيد الذي عوّل عليه المواطن الصيني، ليضمن لنفسه عيشاً طبيعياً، أو ليحقق مستقبلاً وظيفياً مرموقاً، وليحظى باحترام الآخرين. ولذلك لم يتأت للأخلاق الشيوعية (وهي أخلاق رائعة)، أن تُغرس في الشعب الصيني بالسوط والسكاكر. فالصينيون أصلاً عاشوا هذه الأخلاق آلاف السنين. ولكنهم عاشوا في ظل نظام، لم يكن يسمح للفئة الحاكمة بالفساد والانحلال، إذ التزم جميعهم من القاعدة إلى القمة، بمقتضيات هذا القانون الأخلاقي.

لقد شاعت في أوساط الشعب الصيني كثرة من العبادات المحلية والمعتقدات الخرافية، ونشطت حركة الشامانات، والعرّافين، والمنجّمين. كما كان الإيمان بوجود القوى الخارقة حقيقياً. ولكن نظام الدولة الذي اندرج فيه النظام الديني، كان نظاماً شديد الواقعية، ولم يكن فيه مكان للصوفية، أو سواها من الانفعالات الدينية الأخرى، التي يمكن أن تفضي إلى إثارة التوتر الاجتماعي. وفي الآن عينه، كان الدين في الصين القديمة شأناً من شؤون الدولة الخطيرة. ولذلك كان كل شيء في هذا الميدان يجري بمنتهى الجدية والدقة، أي أن الموقف من الطقوس الدينية عند الصينيين، لم يكن كموقف المسيحيين منها. ففي الصين كانت علاقة الشخص المعني مع الإله - السماء تتراجع إلى المقام الثاني. بينما يقوم كل شيء عند المسيحيين على هذه العلاقة الشخصية. وكان الشأن الرئيس في كل طقس عند الصينيين، يتمثل في إدراك الأهمية السياسية للطقس المؤدى. فكما هي حالهم في كل شأن، كان الصينيون مواطنين أولاً، وقبل كل شيء. هكذا أنشأهم النظام الذي نحن بصدده، على امتداد قرون كثيرة.

ومن المفيد أن نقول بعض الكلمات عن الفلسفة الصينية القديمة: لقد كان المحور الأساس الذي قامت عليه هذه الفلسفة، هو تقسيم كل ما هو موجود إلى مبدأين متعاكسين: المبدأ الذكري (إين)، والمبدأ الأنثوي (يان). وقد عدّ المبدأ الذكري إيجابياً، ولذلك ارتبط عندهم بالشمس وكل ما هو مضيء وساطع وقوي. بينما ربطوا المبدأ الأنثوي بالقمر، وكل ما هو مظلم وكدر وضعيف. ولكن المبدأين حسب هذه الفلسفة، كانا مترابطين، ومتفاعلين بانسجام تام. وكل ما هو موجود ليس سوى ثمرة هذا التفاعل. وكانت نظرية إين - يان هذه قد ظهرت قرابة القرن الرابع قبل الميلاد. ثمَّ أكملتها بعد وقت، نظرية أوسين. وقد قامت هذه الأخيرة على أساس تصورهم عن تفاعل العناصر الخمسة الأولى، الماهيات الخمس البدئية وتداخل بعضها مع بعض. وهذه العناصر، هي النار، والماء، والتراب، والمعدن، والخشب. ولفت مؤرخو الفلسفة الانتباه إلى أن تعاليم زارادشت احتوت بدورها فكرة مبدأي الكون المتعاكسين: النور والظلام. وعرفوا في الوقت عينه تصوراً عن البيئات الأساسية النقية، الماهيات النقية البدئية: النار، والماء، والتراب، والمعدن، والنبات، والقطيع. لكن مسألة القطعان في الصين لم تكن مسألة مهمة، ولذلك كان سقوط هذا العنصر أمراً بديهياً. وهكذا تتضح لنا صلات الفلسفات بعضها ببعض. وتعد الزارادشتية هي العلة الأولى بين هذه الفلسفات.

لكن الفكر الفلسفي الصيني لم يراوح في مكانه. فقد تطور وتقدم وصاغ نظريات صوفية، وميتافيزيقية، وسوى ذلك من النظريات الفلسفية الأخرى.

الكونفوشيوسية

إن الأفكار العظيمة التي تبدعها الشخصيات الفذة، لا يمكن أبداً أن تنبت في أرض خاوية. بل على الضد من هذا تماماً، إذ عندما تحلل كل شيء، فإنك تجد أن تلك الأفكار كانت معدّة، جاهزة حتى قبل أن يظهر مؤلفها إلى الوجود. وهنا بالضبط، مربط الفرس، فالشخص العظيم مرسل لكي يضع في لحظة المنعطف التاريخي الخطير، تلك الآلية الجاهزة في سياقها الصحيح. ويبدو لنا أحياناً أن ما فعله هؤلاء بسيط جداً. فالنظرية النسبية مثلاً، كانت جاهزة تقريباً قبل أ. انشتين. لكن هذه «التقريباً» التي نظن الآن إنها كانت طافية على السطح، لم ينجح أحد في التقاطها، لم تصل إلى ذهن أحد. فالمسألة هي أن الأفكار لا تُصنع في داخل المخ، إنما تأتي إليه. إنها تحلق في الهواء ونحن نلتقطها بإدراكنا، كما يلتقط جهاز المذياع (الراديو) موجات الإرسال. لكن جهاز الاستقبال هذا يجب أن يكون من نوعية فائقة الجودة. ومعنى هذا أن المرء يجب أن يمتلك ذهناً فذاً، وأخلاقاً سامية، و....

لقد ولد كونفوشيوس في زمنه، وأدى عمله، أي عمل الأفكار التي وردت إلى رأسه. ولد كون - تسزي في العام 551ق.م، وعاش 70 عاماً. وكان العصر الذي ولد فيه هذا الرجل عصر انتقال المجتمع الصيني من المعايير الأبوية العشيرية إلى نظام السلطة المركزية، التي تركزت بين أيدي حكام الممالك المستقلة، الذين باتوا يعتمدون الآن على جهاز من الموظفين، الذين لا ينتمون إلى الفئات العليا من المجتمع. فلم يعد العمل في هذا الجهاز يقتضي الانتماء إلى فئة الوجهاء، كما كانت عليه الحال سابقاً، بل امتلاك المؤهلات الكفيلة بضمان تأدية المهمة الملقاة على عاتق المرء، على أكمل وجه. وغني عن البيان أن الانتقال من بنية إدارية إلى أخرى، لا ينجز دفعة واحدة، وفي وقت محدد. فالجديد جاء يحطم القديم حاملاً وجهاً صارماً وأنياباً حادة. فطفت على السطح المحسوبية، والجشع،

وانتهاك القوانين، والطغيان، والخيانة. ورأى كثيرون في ذلك الانهيار نهاية الكون. فقارنوا مراراً وتكراراً بين ما يقع أمام أعينهم، وبين الحال المثالية التي كانت سائدة في الماضي، حيث كان الحاكم الحكيم الطيب يقود البلاد وفق إرادة السماء، وكان كل شيء هادئ وعلى ما يرام. وما فعله كونفوشيوس، هو أنه عزّز أفكار مقارنة الحاضر بالماضي هذه، وأبرزها. وعلى أساس هذه المعاكسة، أنشأ كونفوشيوس مثاله عن الإنسان الكامل (تسزيون - تسزي)، النموذج الذي يجب أن يقتدي به المواطنون. وحسب رؤية كونفوشيوس: إن هذا المواطن المثالي يجب أن يتحلى بميزتين، هما الأكثر أهمية بين الميزات الأخرى، وهما الحسّ الإنساني، والإحساس بالواجب. ونحن نتخيل السمة الأولى بصورة محددة تماماً: محبة البشر، والرأفة، والاستعداد للتعاون مع الآخر. ولكن كونفوشيوس أعطى لهذا المصطلح (جين) تأويلاً فضفاضاً جداً. فقد شمل الموقف الإنساني عنده التواضع، والعدل، وضبط النفس، والوقار، ونكران الذات، ومحبة الناس، ومفاهيم أخرى كثيرة من هذا القبيل، أي من قبيل جملة المثل، التي كان يتحلى بها الأقدمون وحدهم. أما فيما يخص الشعور بالواجب، فلم يكن ثمَّة ترتيب صارم. كما كان هذا المفهوم بدوره مفهوماً عريضاً جداً، وكان الإنسان نفسه مسؤولاً عن جوهره الأخلاقي. لقد عدّ الإحساس بالواجب التزاماً أخلاقياً يفرضه المرء على نفسه بنفسه، ولا يفرضه عليه أحد آخر. ورأوا أن المواطن المثالي تسزيون - تسزي النبيل، يسترشد في أثناء ذلك بالمعرفة والمبادئ السامية، وليس بالمكاسب في أي حال من الأحوال. وكان كونفوشيوس نفسه قد علّم هكذا: «الإنسان الشريف يهتم بالواجب، ولا يفكر الخسيس إلا بالمكسب». وقد انطوى الإحساس بالواجب على السعي لاكتساب المعرفة، وواجب التعليم، وإدراك حكمة القدماء. وعلاوة على سمات المواطن المثالي المثقف هذه، صاغ كونفوشيوس سمات أخرى، منها الإخلاص، والتواضع (تشجين)، والوقار، ومراعاة المراسم والطقوس (مي). وقد ترك لنا كونفوشيوس مجموعة أقوال دوّنت في كتاب لونيوي. ووصف المواطن المحترم في هذه المجموعة بأنه إنسان شريف ومتواضع، ومستقيم، وجريء، يرى كل شيء ويفهم كل شيء، يقظ في قوله، حذر في عمله. والتسزيون - تسزي الحقيقي، لا مبال حيال الطعام، والثروة، ومباهج الدنيا، والمنفعة المادية. وعليه أن يحسن تسوية الأمور، عندما لا يكون واثقاً مما حوله، ويفكر في تصرفاته عندما يكون غاضباً، ويهتم بالأمانة في مشروعه الناجح. وعليه في أثناء ذلك أن يتحاشى الرغبات في سن الشباب، والنزعات في سن النضوج، والشح في سن الشيخوخة. وعلى هذه الصورة، فإنه يجب على المواطن المحترم أن يكرّس نفسه لخدمة المثل العليا والناس، والبحث عن الحقيقة. ورأى كونفوشيوس أن مثل هذا الإنسان إذا ما أدرك الحقيقة صباحاً «يمكنه أن يموت مطمئناً في المساء».

ولكن هل يمكن أن يغدو المرء هكذا فعلاً؟ لا شك في أنه كان مثالاً تأملياً، جمعاً ما للأخلاقيات السامية. بيد أن الحياة صححت هذا المثل، وجعلته أكثر قابلية

للاستمرار، أي جعلته واقعياً، والأهم من هذا كله، جعلته إلزامياً للمواطن. وشيئاً فشيئاً تراجعت حدة العواصف، وتصاغرت النوازع الاجتماعية، وأخذ المجتمع الصيني يسعى إلى الاستمرار. وصعدت هيبة تعاليم كونفوشيوس، وزاد احترام المجتمع لها. وبات اعتناقها مدعاة للفخر. وقد انسحب هذا أول ما انسحب، على ممثلي الفئات الاجتماعية العليا: العلماء - الموظفين، والبيروقراطيين الإداريين، الذين باتوا يديرون الإمبراطورية الصينية، وكان العصر المعني عصراً طويلاً جداً، إذ امتد خمسمئة عام (من القرن 3ق.م. حتى القرن الثالث الميلادي). وعند نهاية هذا العصر كانت الإمبراطورية الصينية قد باتت إمبراطورية كونفوشيوسية بالكامل: باتت تعاليم كونفوشيوس تخدم لدى الدولة. وغني عن البيان من غير شك، إن المواطنين لم يتحولوا كلهم إلى مثال السلوك الصالح. فهذا أمر غير واقعي. ولكن المجتمع ككل اتخذ موقفاً إيجابياً من هذا المثال. ورويداً رويداً نشأت وتقننت المعايير ذات الصلة، والنماذج الأصل لسلوك كل مواطن. وقد ارتبطت هذه المعايير بالمكانة التي يشغلها المواطن في التراتبية الاجتماعية. فصيغ في ذلك الوقت عينه قانون اللباقات الصيني، الذي جرى ضبطه وتنظيمه بصرامة شديدة، وهو يُعرف اليوم بطريقة «التكلّف الصيني». لقد وضعت قواعد سلوك دقيقة لأحوال الحياة اليومية كلها. وكانت مجموعة قواعد اللباقات الظاهرية (ليتسزي)، إلزامية للمواطنين كلهم على امتداد أكثر من ألفي عام. وكلما كانت المرتبة الاجتماعية أعلى، كلما زادت صرامة الالتزام بتطبيق هذه القواعد. فعلى تطبيق مجموعة هذه القواعد تأسست الإمبراطورية الصينية نفسها، بجهازها البيروقراطي الجبار.

ولم يقف كونفوشيوس عند حدود صياغة قواعد السلوك ومتطلباتها لكل شخصية، بل صاغ كذلك المثل الأعلى في المجتمع، الذي يجب أن تعيش فيه الشخصية المعنية. لقد قال كونفوشيوس: «فليكن الأب أباً، والابن ابناً، والحاكم حاكماً، والموظف موظفاً». ورأى أيضاً أن تركيبة المجتمع ينبغي أن تكون راسخة، وعلى جميعهم أن يحترمها، وعلى كل منهم أن يعرف حقوقه وواجباته، ويؤدي ما عليه تأديته. ويجب أن تتألف تركيبة الدولة هذه من طبقتين: على الطبقة العليا أن تفكر وتقود، وعلى الدنيا أن تعمل وتخضع، وقد رأى كونفوشيوس وأنصاره، إن هذا النظام الاجتماعي، هو وحده النظام الممكن والأبدي والواقعي. وقد كانوا على حق مرتين، مرة عند رأوا أن الانقسام إلى طبقة عليا وطبقة دنيا يجب ألا يرتبط بالمنشأ الطبقي، والثروة، والقرب من القصر الإمبراطوري، إنما يجب أن يكون الانقسام حسب كونفوشيوس، وفق درجة قرب الفرد المعني من مثال المواطن الشريف الموصوف أعلاه. وعلى هذا النحو يكون المجتمع مجتمعاً شفافاً بكامله. فكل من يمتلك معارف ويتحلى بالفضائل، يستطيع أن يخرج إلى السطح ويكون سنداً للدولة بتأدية واجبه بأمانة ونزاهة. وتحضرني في هذا السياق مسألة ناقشتها روسيا في القرن الماضي، هي هل ينبغي أن يسمح للفئات الشعبية

الدنيا أن تتعلم؟ في المجتمع الصيني حسمت هذه المسألة ببساطة منذ ألفي عام. فقد كان واضحاً وقتئذٍ، إنه كي لا ينحطّ المجتمع ويتداعى، يجب أن يُضخ فيه دم جديد نقي، يمنح المجتمع قوى جديدة، وطاقة جديدة، ومعارف جديدة، واستقامة تُخرج منه كل ما يعيق عمله بشكل طبيعي. ويجب أن تخلو منظمة نقل الدم هذه من الصمامات، والحواجز، والعوائق: ينبغي أن تكون الفرصة متاحة دائماً للموهوب الشريف، العارف لكي يصعد إلى فوق ويقدم مزيداً من النفع لمجتمعه ولشعبه. وإذا كان المجتمع شفافاً، فإن تيار العارفين الشرفاء المندفع من تحت، سوف يكنس منه الرشوة، والفساد، والتسيّب، والسعي لتحقيق المنافع الشخصية على حساب المصلحة العامة. ولم يكن مجتمعنا مؤخراً، مجتمعاً شفافاً حراً. لأن الشريحة العليا كانت محجوبة عن الفئات الدنيا بحاجز مظلم، منع انتقال الدماء الطازجة النقية المعافاة، إلى شرايين المجتمع. ولذلك لم يكن انهياره مستغرباً. أما في المجتمع الصيني، فقد كانت تنقية المجتمع تتحقق منذ ألفي عام. وحملت رايات الكونفوشيوسية شعار «الشعب أولاً، والمعبودات ثانياً، والحاكم ثالثاً». وعندما شغل تلميذ كونفوشيوس تسيو منصب الوزير، وفرض ضرائب كبيرة، أعلن كونفوشيوس بالصوت العالي: «ليس هذا تلميذي».

ويعدّ مطلب احترام كبار السن عنصراً مهماً في تعاليم كونفوشيوس. ومن بين الأكبر سناً: الوالد، والموظف، والحاكم، ومن في حكمهم. فالأكبر يجب أن يكون بالنسبة للأصغر شخصية يُحرّم الاعتراض على ما يصدر عنها. وقد قال كونفوشيوس: إن الدولة أسرة كبيرة، والأسرة دولة صغيرة. وأسهبت تعاليمه إسهاباً خاصاً في دراسة موضوعة وجوب احترام الابن لوالديه (سياو). ورأى كونفوشيوس أن هذا الاحترام، هو أسّ الموقف الإنساني، ومعنى هذا أنه ينبغي على كل ابن أن يوقّر والديه. ويرتفع هذا الالتزام إلى ثلاثة أضعافه بالنسبة للشخص المتعلم المثقف الإنساني، الذي يتحلى بالإحساس بواجب المواطنية. وأن الأبناء ملزمون بخدمة والديهم وفق قواعد «لي»، ودفنهم عندما يتوفون، وتقديم القرابين لهم حسب قواعد «لي». وقواعد «لي» هذه، تعني الآتي: يجب على الابن أن يعتني بوالديه طوال حياته، ويفعل كل شيء من أجلهما وأجل صحتهما، ويوقّرهما في الأحوال كلها. وإذا ما كان الوالد غير فاضل، فيجب على الابن أن يحاول توجيهه إلى طريق الحق، لكن عليه أن يفعل هذا محافظاً على اللباقة والاحترام الواجبين. فيحاول الوصول إلى غايته بالحسنى والتوسل والإقناع. وانطلاقاً من هذه القواعد، كان على الابن ألا يشهد ضد والده. وينسبون إلى كونفوشيوس قوله: ليست الاستقامة والشرف أن تغدر بوالدك، إنما في أن تتستر عليه حتى لو كان «سرق كبشاً».

وقد أعطت قواعد احترام الوالدين في الصين ثمارها. فغدت معيار حياة المجتمع، الذي تحول بفضلها إلى مجتمع مستقر أو منصف. أما ما يمكن أن يؤدي إليه انتهاك هذه القواعد، فإننا نراه عند كل خطوة نخطوها في روسيا التي نجحت

في هدم كل ما يجعل المجتمع متماسكاً وصلباً. وإذا ما عدنا إلى الصين، فإن موقف الأبناء السليم تجاه والديهم، مهّد السبيل لتقوية لحمة الأسرة، وحتى إلى ازدهارها، كما يؤكد المؤرخون، ففي المجتمع الصيني عدت الأسرة لبّ المجتمع. ووضعت مصلحتها فوق مصلحة المجتمع. لقد نشأت في المجتمع الصيني شروط ومواقف تجاه الأسرة جعلتها كبيرة لا تتجزأ. ومعنى هذا أن الأبناء كانوا يعيشون مع والديهم حتى بعد أن يتزوجوا. وثمَّة كثرة من الأسر الكبيرة لم تنفصل إلا بعد وفاة الأب. وكانت معايير الانقسام على الوجه الآتي: يشغل الابن الأكبر مكان رب العائلة، وهو الذي كان ينال النصيب الأكبر من التركة. فله يؤول منزل الأسرة ومعبد الأسلاف. أما باقي الأرزاق فكانت توزع على الأبناء الآخرين بالتساوي. وهكذا كانت الأسر الكبيرة تتداعى، ولكن تداعيها لم يكن كلياً. فمعبد الأسلاف بقي واحداً لهم جميعاً، وكان هذا يبقى في عهدة الأخ الأكبر. وهو الذي كان الأسرة في كل وقت. ومع أن بنية الأسرة تجزأت، إلا أن فروعها بقيت متماسكة إحداها بالآخر. وغالباً ما كانت هذه العشيرة (الأسرة الكبيرة) تشغل قرية بكاملها. ومن الملائم أن نؤكد مرة أخرى على أن بناء مثل هذه الأسر الكبيرة الراسخة الغنية عادة، بات ممكناً بفضل بناء القاعدة الأخلاقية الضرورية لنشوئها: احترام الأسلاف، واحترام الأكبر سناً، واحترام الوالدين، والتحلي بشتى الفضائل، والإحساس بالواجب.

لقد كانت البطون الأسرية تقرر كثيراً من شؤونها الإدارية والتشريعية بنفسها. وكان هذا ضرباً من ضروب الإدارة الأسرية - القروية. فقد اتحد أعضاء البطون الأسرية كلهم في تعاونية واحدة. وكان ثمَّة من دون شك، من هم أعلى ومن هم أدنى. لكن كلهم كان يعمل لكي تكون أحوال العشيرة الأسرية التي ينتمي إليها أفضل، فمصالح الجماعة، العشيرة أولاً، ومصالح الفرد ثانياً. وكان معبد الأسلاف، هو المركز الروحي والإداري للعشيرة الأسرية: فلم يجتمعوا هنا للاحتفال بالأعياد المشتركة فقط، بل لمناقشة شؤون حياة الجماعة كلها أيضاً. وكان كل شيء يقرر هنا في هذه اللقاءات، ولم يكن لأي فرد من أفراد الجماعة حق «الفيتو»، حتى عندما كان يجري تقرير مصيره الشخصي. فنظام التربية كان مبنياً منذ البداية على أن يعتاد المواطن منذ صغره؛ على كون العاطفي والخاص أقل أهمية من الاجتماعي والعام.

لقد أعلن كونفوشيوس أنه لا ينشئ شيئاً من عنده، أو وفق اعتقاده، بل ينقل للأحفاد التقاليد المنسية، التي كرسها الحكماء القدماء العظام. ولكن هذه الكلمات تنطوي على الحقيقة، كما تنطوي على كذب مقدس؛ لأن حقيقة الأمر، هي أن كونفوشيوس قدّم مساهمات شخصية كبيرة، وأعطى فهمه الخاص عن تقدم المجتمع، لكنه أضاءه بتقاليد الأسلاف. ولم تخسر تعاليمه شيئاً عندما نسبها كاملة

إلى الحكماء القدماء، بل ربحت من هذا كثيراً. وعلى وجه العموم، لم يقل كونفوشيوس سوى الحقيقة، لأنه حقاً لم يدخل في تعاليمه أي شيء غريب الجنس، يمكن أن يتعارض مع تعاليم القدماء. ولم يقتصر اهتمام كونفوشيوس وأنصاره على العناية بمصادر الحكمة القديمة المدونة، بل عملوا على أن تكون تلك المصادر يسيرة الفهم. وفي أثناء عملهم على هذه المصادر، اهتم هؤلاء بتسليط الضوء لاسيما على أجنّة النظام الكونفوشيوسي لبناء المجتمع، تلك الأجنّة التي كانت كامنة هناك. ولم يكتف هؤلاء بإبراز تلك الإرهاصات، إنما عملوا على تطويرها أيضاً. فقد أكمل الكونفوشيوسيون مثلاً، حوليّة تشونسيو، وكتاب الروايات التاريخية شوتسزين، وكتاب أغاني سيسزين و...، وحرروها. وقد شكلت هذه المصادر معين حكمة نهلت منه أجيال كثيرة من الصينيين. وفي الوقت نفسه، كانت الأجيال تجمّ أصول الكونفوشيوسية نفسها.

وقد ينشأ انطباع مما أوردناه عن الصين هنا، أن الكونفوشيوسية كانت الاتجاه الفلسفي الوحيد فيها إبّان الحقبة المعنية، بيد أن الأمر ليس كذلك؛ لأن الواقع، هو أن الكونفوشيوسية كانت الفلسفة الغالبة في المجتمع الصيني وقتئذٍ. والحقيقة أنها لم تكن فلسفة وحسب. ففي القرون 5-3ق.م، كانت تتطور إلى جانب الكونفوشيوسية، وبالتنافس معها، أنظمة فلسفية أخرى مختلفة. ونذكر من هذه الفلسفات على وجه الخصوص، فلسفة القانونيين - الليجيين. فقد كان هؤلاء من أنصار القانون المكتوب، الذي رأوا أنه يجب تطبيقه على وقع التهديد بإنزال العقاب الجسدي. وحسب رأيهم أن النظام في المجتمع يجب أن يدعمه نظام طاعة يعتمد على العصا. وقد وضع الليجيون خطة مماثلة لإدارة المجتمع: يضع الحكماء المصلحون القوانين، فيصدرها الحاكم، ويجب أن يكون ثمَّة جهاز من الموظفين يديره وزراء، مهمتهم تطبيق القوانين - الأوامر الصادرة. وينبغي على السلطة التنفيذية أن تكون صارمة بما يكفي لتطبيق القوانين. ومن الواضح أن خطة الليجيين صحيحة من حيث الشكل، بل هي مطبّقة الآن فعلاً. ولكن ما يثير الفضول، هو أن نظام الليجيين خلا تماماً من حضور السماء فيه، وهي حسب الصينيين، المعيار المطلق للعدالة والفضيلة. فلم يكن فيه سوى العقلانية التي بلغت حد الاستهتار، إذا صح القول. فما هي الميادين التي وقف فيها نظام الليجيين في مواجهة الكونفوشيوسية؟ لقد خلا نظام الليجيين خلوّاً تاماً من الروح، روح الأخلاق السامية، الروح التي يعجز المجتمع عن العيش بدونها، فينهار. كما خلا هذا النظام من تواصل الأزمنة، فليس ثمَّة صلة فيه بين الماضي والحاضر والمستقبل؛ لقد كانت روح المجتمع والأمة والشعب ميتة في نظام الليجيين، ولذلك

لم تحقق الليجية إلا نجاحاً محدوداً، وفي الأماكن التي كان يحكم فيها أمراء محليون، لأنها كانت تبرر أي سلوك يسلكونه. أما النبل والواجب فلم يكن الحديث عنهما ممكناً في النظام الليجي، فمهمة هؤلاء الأمراء كانت واحدة، هي الحفاظ على استقلالهم وإخضاع مزيد من الأملاك الخاصة لسلطانهم.

ومهما بدا الأمر غريباً، إلا أن النظام السلبي ما لبث أن طرح ثماراً إيجابية. ففي غربي الصين أخذت إحدى الإمارات تقوى على حساب جيرانها. وقد نجحت إمارة سين هذه في نهاية المطاف بالاستيلاء على أراضي الصين كلها في القرن 3ق.م. لقد نشر مؤسس سلالة سين إين - خواندي، الخطة الإدارية التي وضعها الليجيون. وحسب هذه الخطة، كان ينبغي أن توضع إرادات الإمبراطور موضع التنفيذ من دون أي تسويف. ولم تحسب السلطة المركزية حساباً لأي شيء، فسلبت الناس كل شيء لأنها كانت في حاجة ماسة للموارد من أجل بناء سور الصين العظيم، ومجمع القصور الملكية في العاصمة، وأشياء أخرى كثيرة. ولم يلق الحاكم وموظفوه بالاً لحال الناس البسطاء الذين باتوا لا يملكون شيئاً تقريباً. إذ كانوا على عجلة من أمرهم لجعل الصين بلداً عظيماً بأي ثمن كان، وحمايتها من العالم الآخر كله بسور جبار. لكن السهّام بالغ كثيراً في شد الوتر، فانكسرت القوس. لقد انفجر المجتمع بانتفاضة شعبية أودت بالسلالة السينية، وسقطت معها الليجية كذلك. فأعقبتها سلالة جديدة، هي السلالة الخانية. وبدا أن الطريق باتت خالية أمام تقدم الكونفوشيوسية، التي استقرّت بهدوء وسكينة على النظام الإداري البيروقراطي الجبار، الذي كان قد تشكل. وفي عهد الإمبراطور الخاني أو - دي تحولت الكونفوشيوسية إلى أيديولوجيا رسمية للدولة. ويمكننا أن نقول بغير مبالغة: إن ذلك كان منعطفاً كبيراً في تاريخ الكونفوشيوسية والصين كلها.

ولكن النظام الفلسفي الذي كان مدعواً لضمان استقرار المجتمع وتحقيق تقدمه؛ كان مدعواً في الوقت نفسه لإنتاج شيء ما أكثر مما هو متوفر فيه، بيد أنه بقي حتى اللحظة نظاماً فلسفياً وحسب. لقد كان على النظام المتكيّف أن يتوفر على قوانين صارمة، يجب أن تدخل حيز التنفيذ من غير تردد أو تسويف. وقد نجحت الكونفوشيوسية في صيغتها المعدلة أن تضمن استقرار المجتمع فعلاً، لكنها في غضون ذلك فرضت على الحاكم أن يتحلى بالفضيلة السماوية «دي»، التي مرّ بنا الحديث عنها. لقد كان ذلك شيئاً ما، من قبيل التفويض الإلهي الذي تمنح السماء به حق إدارة البلاد. ولكن لكي ينال الحاكم مثل هذا التفويض، كان عليه أن يكون فاضلاً بالمعنى العريض للكلمة. وعلى هذا النحو، فإن الكونفوشيوسية لم تتحول إلى خادم للحاكم، بل نجحت في أن تحدد له مكاناً في نظامها. وعلى الرغم من أن هذا النظام كان قد صار إلى نظام رسمي حكومي، إلا أنه أقر للشعب حقه في الثورة على الحاكم، الذي قد يفقد حق التفويض السماوي. ويستفاد من هذا أن الثورة كان يمكن أن تشتعل إذا ما نشأت ظروف معينة. وتدل اللغة الصينية على مثل هذه الحالة، بكلمة إي - مين. وربما تكون هذه هي الحالة الوحيدة في تاريخ

البشرية، التي يزرع فيها النظام الحاكم في داخله لغماً يمكن أن ينفجر في أي لحظة يحيد فيها الحاكم عن الحق، ويودي بالنظام كله. والحقيقة أنه من الأصح ألا نستخدم هنا كلمة «يفجر»، بل كلمة يصحح، يقوّم، لأن الحديث لا يجري عن الانتفاضة وحسب، إنما عن تغيير السلطة بالعنف. لقد قضى هذا النظام بوجود حاكم هو أشبه بالموجه الآلي: يصحح خط سير المجتمع دائماً بما يتوافق والنظام. ولم يترك النظام أي فرصة لقفزات حادة، يمكن ان تخرج عن الخط العام، ولو حدثت فإنها لا يمكن أن تدوم طويلاً.

ومن المسائل التي كان لها أهمية استثنائية، مسألة إعداد الكوادر الفكرية، العلماء - الموظفين. فالمهمات التي ألقيت على عاتق هؤلاء، كانت بحقّ كبيرة جداً، لأن الأمر لم يقتصر على إدارة البلاد، إنما شمل التربية والتعليم كذلك. ويجب أن نعترف بأن الإداريين الكونفوشيوسيين قد أدّوا هذه المهمات بنجاح كبير. وهذا ما تؤكده النتائج. فقد كان كل مواطن كونفوشيوسياً أولاً وقبل كل شيء، ثمَّ كان بعد ذلك صينياً. وفي طور ما من أطوار حياته، كان يمكن للمواطن الصيني أن ينتحل أي دين أو فلسفة أخرى، لكنه كان يسلك دائماً سلوكاً كونفوشيوسياً.

لقد كانت تربية المواطن تبدأ لحظة ولادته. ففي الأسرة كان الصيني يتعلم عبادة الأسلاف ومعايير السياو. ويعتاد على الالتزام الصارم باللباقات، لا في الأسرة فقط، إنما بين الناس كذلك. ومن كان من الوالدين يملك الإمكانية، كان يعلّم أبناءه القراءة والكتابة. كما كان الأطفال يدرسون المؤلفات الكونفوشيوسية الكلاسيكية كذلك. وشاع كثير من موضوعات التعاليم في صيغة مقولات شفهية. لذلك كانت هذه المقولات بمتناول الذين لا يعرفون القراءة والكتابة. وقد تضمنت مغزى القانون العظيم. لقد كانت تمتد آفاق واسعة أمام الذين يتعلمون القراءة والكتابة. فالمواطن المتعلم المثقف المؤهل لأن يقرأ، ويفهم، ويؤوّل الحكمة التي تنطوي عليها الكتب المقدسة، كانت له مكانة مرموقة جداً في المجتمع. لقد كان مثل هؤلاء هم حاملو المعارف، وبهم كان يرتبط التعليم في البلاد، كما ترتبط إدارتها بهم. ولذلك كانت هذه الشريحة من المواطنين المؤهّلين تشغل أعلى مكانة، المكانة التي لم يشغلها في المجتمع الأوروبي سوى رجال من طبقة النبلاء. وتعدّ هذه السمة الجوهرية، هي السمة الأكثر إيجابية التي تميّز بها المجتمع الصيني.

وحسب رؤيتنا المعاصرة، كان التعليم في الصين أحادي الجانب: تركّز في ميدان العلوم الإنسانية وحسب. أما ما كان يتعلق بالعلوم الطبيعية، فقد عُدّ علماً ليس ذا أهمية، ولم يعره أحد اهتماماً. وهذا ما ينبغي أن يتذكره أولئك الذين يرون أن كل فرد من أفراد المجتمع الصيني القديم الذي ابتكر البارود، كان فرداً مبتكراً وماهراً في كل ميدان. لكن هذا ليس صحيحاً قط. فالتعليم في الصين القديمة لم

يتضمن سوى مواد العلوم الإنسانية. واقتصرت متطلباته على معرفة النصوص القديمة، وتحليل مقولات الحكماء، ثمَّ في نهاية الأمر، كتابة المؤلفات. وكان المطلوب أن تتوفر في هذه الأخيرة القدرة على عرض حكمة القدماء والتعليق عليها (وكان لهذا المطلب الأخير أهمية خاصة). لقد ثمَّن الصينيون المعارف دوماً. فهي التي كانت تفتح الطريق نحو الأعلى، وتوفر فرصة الارتقاء الوظيفي، وامتلاك السلطة والثروة. ولكن تعلّم القراءة والكتابة في الصين لم يكن بالأمر اليسير. إذ كان ينبغي أن تحفظ عدة آلاف من الهيروغليفات، وبعد ذلك فقط يمكنك أن تبدأ محاولة فك عقد النصوص القديمة. وكان ذلك يستغرق سنوات، وعليه لم يكن الفقراء قادرين على أن ينفقوا على تعليم أبنائهم. ولكن الفتيان الموهوبين، بمن فيهم الفقراء، غالباً ما كانوا يحققون نجاحاً: كانت أعمال البر شائعة جداً في الصين.

لقد كان نظام إعداد الموظفين المثقفين في الصين، نظاماً فعالاً جداً. فالتقدم على درجات الخدمة، كان يجري على قاعدة المسابقات، وكانت هذه تجري علنية أمامهم جميعاً. ولذلك لم تكن المناصب المهمة في المجتمع من نصيب أبناء الوجهاء والمتنفذين، بل كان يشغلها دوماً أشخاص مؤهلون ذوو كفاءات. ففقير الأمس يمكن أن يشغل اليوم أعلى المناصب، إذا ما كان موهوباً ونجح في تحصيل المستوى التعليمي المطلوب. أما المحسوبية فلا مكان للحديث عنها. لقد كان التقدم في المناصب الوظيفية من نصيب ذوي الكفاءات فقط، أما ما تبقّى فقد كانوا يتساقطون أثناء الامتحانات. وكان يشارك في المستوى الأول من الامتحانات (وهو أدنى درجاتها: سيوتساي)، خريجو المدارس من دون استثناء، وكذلك من درس القوانين بنفسه خارج المدارس. لقد كان كل راغب يحضر إلى مركز الامتحان في الوقت المحدد. وهنا كان هؤلاء يحضّرون للامتحان، ويتقدمون إليه تحت مراقبة صارمة يجريها موظفون حكوميون متخصصون، كما كانت الامتحانات نفسها تجري بطريقة مبتكرة. لقد كان يوضع كل متقدم في حجرة خاصة به، ويبقى فيها من دون أي كتب أو مواد أخرى، طوال يومين أو ثلاثة أيام يجب عليه أن يؤلف أثناءها قصيدة ملحمية، عن حدث ما من أحداث التاريخ القديم، إضافة إلى بحث في موضوع مجرد. وكانت شروط الامتحان معدّة بطريقة لا تمرّر إلى المستوى الثاني من الامتحانات أكثر من 2-3% من مجموع المتقدمين (سمي الدور الثاني تسزيويجين). وكانت أسئلة هذا الامتحان نفسها تقريباً أسئلة الامتحان الذي يسبقه، لكن المتطلبات كانت أكثر صعوبة بكثير. ولذلك لم يكن يجتازه سوى عدد قليل جداً.

وفي كل عامين أو ثلاثة أعوام، كانت تجري المسابقة الثالثة (تسزينشي)، في العاصمة. وكان يتابع هذه الامتحانات كبار موظفي الدولة، وأحياناً الإمبراطور نفسه. فهنا بالضبط كان مصدر الكوادر الذين كانت تحتاجهم الدولة. وكل من كان يجتاز الدور الثالث كان يبدأ خدمته في مناصب الدولة العليا. وهكذا يكون قد تحقق له الارتقاء الوظيفي، وبات الإجلال والثروة والمجد بمتناول يده. لكن هذا كله تحقق بشرف، وليس بالمحسوبية. فالمرء لم يشغل في المجتمع إلا المكان الذي هو مؤهل له، المكان الذي أعد نفسه له سنوات، وبذل جهداً مضنياً لتحصيله. ونال المجتمع بدوره أشخاصاً مؤهلين حقاً لشغل المواقع المهمة فيه.

كما قدّر المجتمع تقديراً عالياً أولئك الذين لم يتجاوزوا الدور الثاني من الامتحانات. فقد استخدموا في المناصب الحكومية الأدنى مرتبة، لكن أهيمتها كانت كبيرة. فكل منصب من مناصب الدولة كانت له أهميته. وكان عمل كل موظف ظاهراً للعيان، وفي أي لحظة كان يمكن أن يحل بدلاً منه موظف آخر أكثر اجتهاداً، وتأهيلاً وإنتاجية. وفي دوائرهم الإدارية المحلية، أدى هؤلاء الموظفون دوراً بالغ الأهمية في الحياة السياسية، كما في الحياة العملية للدائرة. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن الذي كان يجتاز الدور الامتحاني الأول، كان له تقديره أيضاً. فهو واحد من بين ثلاثين متقدماً، لذلك كان ينال بدوره، مكانه المناسب في جهاز إدارة الدولة (على مستوى أدنى، لكنه مستوى شديد الأهمية).

ويرى المؤرخون (باستثناء الماركسيين منهم)، أن الصين لم تعرف الطبقات بصفتها طبقات. ولكن إذا دعونا كل الموظفين المؤهلين طبقة، فإننا نستطيع أن نقول بثقة: إن هذه الطبقة كانت الطبقة الأكثر تمييزاً، مع أنه من المتعارف عليه أن تدعى فئة شينسي، وليس طبقة شينسي. وكانت هذه دوماً فئة معافاة، ومؤهلة لتأدية مهماتها. لكنها لم تنل أكاليل الغار، لأن ما كان مطلوباً منها كان كثيراً جداً. وكل من كان يسهو أو يتوانى كان يستبدل به آخر، على قاعدة المسابقات عينها. ولكن مبدأ الشفافية لم يكن يسمح بالصعود إلى فوق فقط، إنما كان يرغم الذين وصلوا إلى فوق على أن يعملوا بأقصى طاقة ممكنة، وان يكونوا مثالاً للفضيلة والعدل والرأفة. إذاً لم تكن فئة الموظفين المؤهلين فئة راكدة ساكنة لا حركة فيها، بل كانت فئة في حركة دائمة نحو الأعلى ونحو الأسفل. ولذلك كانت هذه الفئة في حالة حركة دائمة. وقد كان ذلك لصالح المجتمع كله، إذ كان يؤدي وظائفه فيه المواطنون الأكثر صلابة وتأهيلاً واستقامة.

ويبين تاريخ مختلف البلدان والعصور، أنه عندما تضعف السلطة المركزية، يتنامى الفساد وينتشر بسرعة قياسية. ويعمّق الفساد بدوره، الأزمة ويزيدها تفاقماً. وليس ثمَّة سوى مخرج واحد من الدائرة المفرغة: تقوية السلطة المركزية. وهذا ما أظهره تاريخ الصين أيضاً. وعلينا أن نعترف للصينيين بأسبقية الفضل في حسم هذه المسألة. ففي أزمنة القلاقل والاضطرابات، كانت فئة المثقفين المؤهلين (الشينسي)، تفرز دائماً عدداً كافياً من الشخصيات، التي كانت

تقف سداً منيعاً ضد الفساد الإداري. فلم يحسب هؤلاء أي حساب للمخاطر الشخصية التي كانت تحيق بكل منهم. وبذلوا كل جهد ممكن لإعادة المجتمع إلى طريق الاستقامة. وقد دعا المؤرخون الصينيون أولئك المواطنين الشجعان «بالموظفين الشرفاء». والحقيقة أن الكونفوشيوسيين وقفوا غير مرة، يدافعون عن مصالح الشعب والدولة في أزمنة القلاقل. وهذا ما زرع لهم سمعة طيبة في المجتمع. وعلى من يرغب في أن يفهم الثقافة والأدب والموسيقا الصينية، أن يتذكر هذا دائماً. فأبطال الروايات في الأدب الأوروبي، هم الأرستقراطيون، والنبلاء الفرسان، ورجال الدين، والملوك، وضباط المبارزات الثنائية، وما إلى ذلك. أما في الأدب الصيني، فيشغل البطل العالِم - الموظف المكانة الأولى. فهو بالذات الذي كان يمثّل المثل الاجتماعية الأعلى في الصين القديمة.

وللشكل (اللباقات الصينية) دور مميز جداً في الفلسفة الكونفوشيوسية. فقد كانت مراعاة كل اللباقات وتفاصيل آداب السلوك، وضبط كل التصرفات، وترتيب الهندام، والحركات، والدخول والخروج، والتزين، مسألة واجبة وضرورية. وقد عد الالتزام بها معيار الثقافة والوقار. وغني عن البيان أن خير من التزم بهذا كله، هم حاملوه عارفوه: العلماء - الموظفون.

ولنعد في خاتمة فقرتنا هذه، إلى مسألتنا الرئيسة: ما هو موقف الكونفوشيوسية من الدين؟ من الواضح أنه يصعب كثيراً أن نجيب عن هذا السؤال في سياق عابر. فمن الوجهة الشكلية، كل صفات الدين حاضرة هنا: الإله الأعلى، السماء، وفرائضه في الفضيلة، والعفة، والسمو الأخلاقي. وهذا نفسه ما تفرضه الديانات الأخرى كذلك، ولكن بلغة مختلفة. أما غياب الصوفية عند الصينيين، أو تقريباً غيابها، وعدهم أمة عقلانية أخمدت انفعالاتها في سبيل السلام الاجتماعي، وأنهم لبسوا لبوس اللباقات، ومشوا مشية واحدة، فإن هذا كله ليس سوى خصوصيات هذا الشعب، سمات طريق التقدم التي اختاروها. ويرى مؤرخو تاريخ الأديان، أن الكونفوشيوسية دين، لكنها دين وفق المعايير الصينية. فمن قال إن السمة الملازمة للدين، هي وجود أعداد لا عد لها من رجال الدين المتسلطين، المكتفين، المتحجرين في الزمان، وعدد كثير من المعابد والأديرة و... إن هذا كله ليس ضرورياً للدين قط، وليس ضرورياً بأي حال من الأحوال، للاتصال مع الإله. لقد أثبت الصينيون أنه لا لزوم لرجال الدين والمعابد والطقوس، لكي يكون الشعب متديناً، إنما المهم، هو أن تبني مجتمعك على قوانين الفضيلة، والعدل، والاستقامة، والتضحية من أجل القريب، والإله، والسماء.